المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يعصى فيحلم.

ويدعى فيسمع ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيا على سنته موفيا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر مهم في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءٌ أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:«قوموا، فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة ﵂: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه

وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غياب أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقْرِ دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكلَه الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتياننا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين

في كل شيء، في مظهرهم وملبسهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويّ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة: في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠].

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك

خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد علي خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون: أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ

والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ} [هود: ١١٦]، مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وأخيرًا: فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من الجوانب المشرقة من حياة بعض أعلام الأمة، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم وتنويها بمنزلتهم وفضلهم سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي.

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الحرب في الإسلام

توجد بعض العوامل التي تؤثر في شخصية الإنسان بحيث تؤثر فيه فيمكن تصنيفها من حيث كونها عدوانية أو مسالمة أو تجنح للعنف والحرب أو تميل للموادعة والسلام في غير ضعف ولا وهن قد يجبرها على ذلك، من تلك العوامل الثقافة المجتمعية، وهي جملة المعارف المكتسبة التي يتلقاها الإنسان منذ ولادته حتى لحظة وفاته، هذا التراكم المعرفي الثقافي يظهر على سلوك الإنسان على شكل عادات وتقاليد تؤثر في سلوك الإنسان عبر ما يسمي بالتنشئة الاجتماعية في نطاق الأسرة والمدرسة والبيئة المحيطة بالإنسان، والدين الذي يتدين به الإنسان هو العامل الأساسي والعنصر الرئيسي المكون لشخصية الإنسان ويجعل له إرثًا ثقافيًا ومجتمعيًا يتحرك الإنسان من خلاله، هذه حقيقة لا مراء فيها، والدليل على ذلك أن هناك مجتمعات توصف بأنها مسالمة أكثر من غيرها وبعضها الآخر أكثر عدوانية، فمثلاً المجتمع الصيني الذي اخترع البارود منذ القرن السابع الميلادي، لكنه اقتصر في استخدامه على الأسهم والألعاب النارية، ولم يستخدمه كسلاح متفجر أبداً، لأن الثقافة الصينية المتأثرة بمبادئ الكونفوشية كانت تمنع اللجوء إلي القتل، وظل الأمر كذلك إلي أن انتقل سر البارود إلي أوروبا عن طريق الرحالة الإيطالي المعروف ماركوبولو حيث تم استخدام البارود كسلاح متفجر في المدافع والبنادق، وفي عصرنا الحالي تم اكتشاف الطاقة النووية بكافة أنواعها وقدراتها الفتاكة وامتلكتها بلدان كثيرة ولم يستخدمها ببشاعة في القتل والفتك إلا الأمريكان واليهود.

أما الإسلام فإننا نجد منظومة ثقافية رائعة تكرس السلام الدولي من خلال مجموعة القيم والمبادئ والمعاني السامية التي تدعوا

المسلم في أحيان وتلزمه في أحيان كثيرة أخرى إلي الميل إلي السلم والسلام وجعله شعاراً للبشرية جمعاء.

فالسَّلام مبدأ من المبادئ التي عمَّق الإسلام جذورها في نفوس المسلمين فأصبحت جزءاً من كيانهم وعقيدة من عقائدهم.

لقد صاح الإسلام منذ مطلع فجره وأشرق نوره صيحته المدوية في آفاق الدنيا يدعو إلي السلام ويضع الخطة الرشيدة التي تبلغ بالإنسانية إليه.

إن الإسلام يحب الحياة ويقدسها ويحبِّب الناس فيها، فهو لذلك يحررهم من الخوف، ويرسم الطريقة المثلي لتعيشه الإنسانية متجهة إلى غاياتها في الرقي والتقدم وهي مظللة بظلال الأمن الوارفة.

ولفظ الإسلام - الذي هو عنوان هذا الدين - مأخوذ من مادة السلام؛ لأن السلام والإسلام يلتقيان في توفير الأمن والسكينة.

واسم الإسلام نفسه مشتق من صميم مادة السلام والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من أن يكونوا مسلمين.

{وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨} [الحج: ٧٨].

ومن الأدلة على أن السلام هو أساس الإسلام أن لفظ الإسلام الذي اختاره الله - تعالى - ليكون الدين المقبول عنده فقال - تعالى:

{إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩} [آل عمران: ١٩].

ولفظ السلام قد تكرر في القرآن أكثر من ثلاثين مرة، وكثرة ذكره في هذه المواضع في مناسبات متنوعة وبأساليب متعددة يلفت الأذهان إلي هذا المبدأ السامي الجليل، ويوقظ القلوب والعقول والمشاعر إلي غرس فضيلة الإخاء الإنساني بين البشر، وإلي تبادل المنافع التي أحلها الله تعالى فيما بينهم، ويغري بإشاعة روح الأمان والاطمئنان بين الأفراد والجماعات.

وربُّ هذا الدين من أسمائه " السَّلام " لأنه يؤمن الناس بما شرع من مبادئ وبما رسم من خطط ومناهج، كما في قوله - تعالى: وقوله: {ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ} [الحشر: ٢٣].

والإيمان بالله هو إخلاص القلب وإسلام الوجه للخالق - سبحانه - والانقياد لله رب العالمين، كما في قوله - تعالي -:{فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟} [الحج: ٣٤].

والحقيقة أن الصراع بين الحق والباطل قديم قدم الإنسانية، فمنذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام، وقف الشيطان موقفه الجاحد المعاند المستكبر، قضى الله عليه بالطرد واللعن. كانت - منذ ذلك الوقت - بداية الصراع... الصراع بين الخير والشر، وبين الحق والباطل وبين المعتدي والمعتدي عليه.

وتطور ذلك الصراع بتطور الجنس البشري وازداد ضراوة بازدياد تمكن الباطل من نفوس الناس واستحواذ الشيطان عليهم.

وكانت أشد أشكال ذلك الصراع هي التي دارت بين أنبياء الله ورسله وبين المعاندين المكذبين من أقوامهم.

وقد جرت سنة الله في خلقه أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم

ويهلك أعداءهم الذين كذبوا به وبرسله، وهلاك المعاندين إما بأيدي رسل الله والذين آمنوا معهم وإما بعذاب يرسله الله - تعالى - فلا يبقي ولا يذر، ولا يكون على الأرض إلا مؤمن صادق، فالجهاد إذن ضد الباطل وجنده قديم قدم الباطل نفسه.

وقد عرفت الإنسانية الحرب على مر الدهور وكر العصور، فالحرب ضرورة إنسانية واجتماعية، فكانت سنوات الحرب في تاريخ البشرية أكثر من سنوات السلام، فعلى مدى خمسة آلاف سنة حدثت (١٤٥٥) حرباً تسببت في موت (٢٥) مليار إنسان تقريباً، وعلى مدى (٣٤٠٠) سنة من حياة البشرية لم تنعم البشرية إلا بمائتين وخمسين سنة سلام فقط.

وفي إحصاء آخر فإن البشرية تشهد كل (٢١٣) سنة حرب سنة واحدة سلام، وأنه خلال (١٨٥) جيل لم ينعم بسلم مؤقت إلا عشرة أجيال فقط، فمنذ الحرب العالمية في القرن العشرين، شهد العالم ما يقرب من مائتين وخمسين نزاعاً مسلحاً دولياً وداخلياً بلغ عدد ضحاياها (١٧٠) مليون شخص، أي يحدث كل خمسة شهور تقريباً نزاعاً مسلحاً ينتج عنه خسائر في الأرواح والممتلكات والمعدات وتترك أثارها على البيئة البشرية [١].

هذه الإحصاءات وإن كانت تقريبية فإنها تمثل الحقيقة التي تعيشها البشرية.

وعليه فإن الجهاد والحرب في الإسلام لم يكونا من الأشياء المبتدعة ولا الحدث المخترع.

وحقيقة الأمر فإن الحرب هي وسيلة من وسائل حل المشاكل

(١) د/ سعيد جويلي، المدخل لدراسة القانون الدولي الإنساني، القاهرة، ٢٠٠٣م، المقدمة ص١.

الاجتماعية، إلي هذا العهد الذي بلغت الإنسانية فيه أشدها، ونالت العقول رشدها، فإلي أي مآل كانت تؤول حالة الجماعة الإسلامية التي دعيت إلي نشر الدين العالمي في عهد كان الحق لا يمكن الاحتفاظ به إلا بالقوة والحكمة لا يستطيع الإدلاء بها إلا إذا حاطتها القوة، بل والحياة لا يتأتى أن تبقي إلا إذا نافحت عنها القوة.

والأمم الغربية بعد أن نالت ما نالته من ثقافة علمية عالية وألمعية فلسفية سامية، ومدنية مادية راقية لا تزال تعمد في العصر الحديث لحل مشاكلها المختلفة إلي الحرب، فلماذا إذن تحرم هذه الأمم الغربية على الأمم الإسلامية - التي تألفت منذ أربعة عشر قرنا - الحرب، وقد أنيط بها إحداث تطور عالمي من الناحيتين المدنية والاجتماعية، وهما أدعى إلي إثارة النفوس من جميع الخلافات البشرية؟

والذي لا خلاف عليه أن الحق لا بد له من قوة تحرسه وتصونه، وإلا ضاع تحت جبروت الباطل، والعامة تقول: المال السايب يعلم السرقة وكذلك قيل: من لم يتذأب أكلته الذئاب.

فالمسلم وهو في داره وعقاره، وسكنه ووطنه، وزرعه وضرعه، وكل ما يحوزه ويملكه - يجب أن يكون محروسا بعدته وعتاده، مستظلا بسلاحه ورماحه، ومن هنا قال الله في القرآن الكريم:{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠].

وليست الحرب في الإسلام غاية مقصودة لذاتها، ولكنها خطة يدفع إليها بغي الباغين وظلم الظالمين، ولذلك قال الله تعالى في التنزيل المجيد:{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾} [البقرة: ١٩٠]، وقال أيضا:{فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ

فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} [البقـــرة: ١٩٤].

وصيانة الحق والرزق تستلزم أن يكون أبناء الإسلام دائما على إعداد واستعداد، وأن تكون طائفة منهم على الدوام في حالة رباط، أو على أرض الميدان، حتى يظل الجهاد فريضة قائمة باقية، وصلوات الله وسلامه على رسوله حين مجد شأن المؤمن المجاهد الموصول النضال، فقال:«خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها» (١).

ومن الأهداف السامية للجهاد في سبيل الله: حرية العقيدة - ضمان إقامة الشعائر والعبادات - رفع الفساد عن الأرض - الابتلاء والتربية والإصلاح - رد كيد المعتدين - كشف المنافقين والخائنين - إقامة الحق والعدل في الأرض - نصرة المستضعفين في الأرض - تأمين طريق الدعوة وهداية العالم، الاستعداد لرد كيد المعتدين.

وقد اختلف الإسلام عن غيره من الأديان بأنه ليس دينا فقط يتعبد به بل هو دين وشريعة - قانون - وهذه الشريعة كاملة تتضمن جميع أوجه الحياة المختلفة وجميع الأزمنة حيث تمتاز بتطورها وصلاحيتها لكل زمان ومكان، والشريعة الإسلامية هي الوحيدة التي رفعت المبادئ الأخلاقية إلى مستوى القواعد القانونية الشرعية وجعلتها إلزامية في مجال التعامل بين المسلمين وبينهم وبين البشر عامة في حالات السلم والحرب، هذه الأخلاق الحميدة أصبحت قانوناً التزم به الخلفاء والولاة والقادة قبل الجنود في حربهم وسلمهم، وهناك من الدلائل التي تؤكد على أن الفارق كبير بين الأخلاق والقوانين الوضعية، حيث إن الأخلاق لها من الضوابط والمميزات

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٩٣/٧، رقم ٩٥٩٦).

ما يجعلها جديرة بالالتزام والاحترام من أي قانون وضعي.

ومن الحقائق التي لا يمكن إنكارها أن قاعدة الإسلام الأساسية هي السلام، والحرب هي الاستثناء، فلا مسوّغ لهذه الحرب - في نظر الإسلام - مهما كانت الظروف إلا في حالات محدَّدة.

وإذا كان الإسلام قد أتاح الحرب ولكنه حاطها بالملطفات بما لم تبلغ إليه مدينة القرن العشرين، ولا إلي ما يقرب منه، وخلصها مما كانت تنشره الكتب التي يعتبرها الأوروبيون مقدسة، فقد جاء في الكتاب الخامس من الزبور قوله: " إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أمما كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن أخرهم، ولا تعطهم عهداً، ولا تأخذك عليهم شفقة أبداً " (١).

وقد خاض الأوربيون باسم الدين حروباً كانت شر الحروب التي شبت بين البشر عامة، في قسوتها وتناسى كل الحقوق الإنسانية فيها، فحينما شرع الإسلام الحرب فلم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ولا أعود منها على الإنسانية بالصلح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء، فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة، ودامت إلي السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً ١٠١٨، المسلمون منهم ٢٥٩، والكفار ٧٨٩؛ أما المصابون في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ م فيبلغ عددهم على الأصح واحد وعشرين مليون نسمه، ٢١,٠٠٠,٠٠٠؛ عدد المقتولين منهم سبعة ملايين ٧,٠٠٠,٠٠٠، وقدر الغربيون أن المصابين في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م لا يقل عددهم عن خمسين مليونا ٥٠,٠٠٠,٠٠٠، وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب العالمية الأولي عشرة آلاف جنيه، أما

(١) محمد فريد وجدى، من معالم الإسلام، ط الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ١٠٣ - ١٠٤.

مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧,٠٠٠,٠٠٠ جنيه، وأما نفقات الحرب العالمية الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات، وكانت البشرية أحوج إلى القليل منها.

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء عاصمة للنفوس والأموال، وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى، فقد كانت مقدمة لحروب متسلسلة، وإليك ما قال المستر (لويد جورج) بطل الحرب العالمية ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ:

" لو رجع سيدنا المسيح إلي العالم لما عاش إلا قليلاً، إنه سيري الإنسان لا يزال بعد مضي ألفي سنة مشغولاً بالشر والإفساد والقتل والفتك ببني نوعه، والنهب والإغارة، بل إن أكبر حرب في التاريخ قد استنفذت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة، وماذا يري المسيح يا تري؟ هل يري الناس يتصافحون كالإخوان والأصدقاء؟ لا. بل يراهم يتهيئون لحرب أشد هولاً من الأولي، وأعظم فتكاً وتعذيباً. يراهم يتسابقون في اختراع الآلات الجهنمية ويبتدعون وسائل التعذيب [1].

فالإسلام إذاً لم ينفرد بين الأديان السابقة والفلسفات المعاصرة بأنه دين يقر الحرب ولكنه انفرد كعادته بتلطيف هذه المجازر الإنسانية إلي آخر حد يمكن الوصول إليه، بدون الإخلال بسلامة الحوزة، فوضع للحرب حدوداً وشرط على الغزاة شروطاً، كلها ترقى إلى احترام الدماء البشرية والعمل بأرقي ضروب العطف على الإنسانية، ولم يهمل مع هذا أن يشير على ذويه بأنه إن جاء وقت

(١) الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط دار التراث ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٧م، ص ٢٢٩.

ترى فيه الإنسانية أن الحرب أصبحت أداة وحشية، وأن التفاهم فيه العطف خير بدلاً منها، فإنهم عليهم أن يتابعوا الإنسانية في ترقيتها ويدخلوا فيما يدخل فيه الناس من اعتبار الحرب وحشية، والجري على ما يجري عليه الناس من حلول الخلافات بالطرق السلمية[1].

* * *

(١) محمد فريد وجدي، من معالم الإسلام، ص ١٠٤.